المبحث الثالث

مالم يهضم بعد

obeikandl.com

obeikandl.com

بين العلم والأخلاق

موضوع القِيَم الإنسانية ومدى جدارتها بالبقاء في عالم متغير هو أحد الموضوعات التي قتلت بحثًا، وعكست نتائجها تطابق وجهات النظر بين أهل الفكر وعامة العلماء، حول ضرورة خضوع التجارب العلمية للمقاصد العليا للمعرفة، والالتزام بالخط الأخلاقي كجسر تعبر من خلاله الأبحاث العلمية لتصل إلى غاياتها دون إحداث أي خلل في المنظومة القيمية، التي تحظى بمكانة سامية لدى الناس منذ فجر التاريخ.

وخلال مسيرة العلم التي امتد فيها الخط البياني للمعرفة الإنسانية بالتزامن مع حركة التاريخ؛ كان الفكر النزيه يمثل حارساً أميناً على التجارب الإنسانية في حقل البحوث التطبيقية، دون أن يكون للأخيرة أدنى اعتراض على الوصاية التي يمارسها رموز المدرسة الأخلاقية على نشاطها المكثّف.

حول التلازم العضوي ما بين التجارب المخبرية والقيم الأخلاقية يتحدث الكاتب عبد الرءوف فضل الله قائلا:" هدف العلم في الأساس هو اكتشاف القوانين الطبيعية وصوغها، وعملية الاكتشاف والصياغة عملية مشروطة بما يشرط به كل فعل إنساني آخر، وبذلك لا يقع العلم بعيداً عن القيم. والقول بإنكار

تعلق العلم بالقيم إنما هو تعبير عن اغتراب العلم عن الإنسان مصدر إنشائه. علماً بأن العلم هو نشدان الحق وتجليته والتطابق معه، ومادام العلم يبحث في الكون فهو يبحث إذن في قيم وغايات كونية Cosmic وذلك بمعنى أن الكون بأسره تحدده قيم وتدفعه غايات، وعلى العلم أن يدرس هذه القيم وتلك الغايات على أنها حوادث ووقائع موضوعية.

في إطار منظومة القيم هناك القيم الفكرية التي تركِّز على رفض الأمِّية وتكريم العلم ونشره، والدعوة إلى الإبداع والتفكير في الطبيعة وأسرارها، وفي الذات الإنسانية خلقاً وسلوكاً، والبحث عن المعرفة والحكمة من أي وعاء خرجت. وقد برهن المجتمع العربي الإسلامي عن انفتاحه على مختلف الثقافات، فقد سبق أن اقتبس من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وغيرها".

الوجه الآخر لهذه العلاقة التي يراد لها النضج والاكتمال يعبر عنها سلوك الفرد العادي المستفيد من الخدمات العلمية، وبدون إدخال الفرد كشريك في الحفاظ على مقاصد العلم في خدمة البشرية يصبح العبث بإنجازات العلم هو السِّمة الغالبة لردود أفعال الناس تجاه ما بين أيديهم من منجزات التقدم العلمي.

وبصيغة أخرى لا بدّ من تأهيل الفرد ليكون قادراً على توظيف المكاسب العلمية للارتقاء بذاته وبالحياة من حوله.

وهذا هو الشرط الثاني والأكثر أهمية في أي قضية تثار حول اقتران العلم بالأخلاق.

إذ مهما كان العالم أميناً، والباحث جاداً في خدمة البشرية فإن لا مبالاة الأفراد والتعامل اللا أخلاقي مع الصناعات الحديثة سيتسبب حتماً في شقاء البشرية وإرباك الحياة الاجتماعية التي ستغدو تحت رحمة التَّرف والطيش والرعونة.

قد يكون الهكرز (قراصنة الحاسوب) نموذجاً على هذه الفوضى التي يُحْدثها الهواة من مستخدمي التقنيات الحديثة، لكنهم حتماً ليسوا الأنموذج الوحيد.

فالشباب العابث الذي لا يبالي في استحداث مواقع إباحية تتصادم كلياً مع الحدود الأخلاقية التي رسمتها الأديان والشرائع؛ هو النموذج الذي يحظى بجمهور تمتدُّ مساحته على رقعة هذا الكوكب الساخن.

وبينما كان المقصد الحقيقي لخبراء البرمجيات هو تسهيل الاتصال، وانسياب المعلومات، وتحرير المعرفة من العوائق والقيود الاصطناعية، إذا بغير الأسوياء من البشر يلوون أعناق تلك المقاصد، ويقرؤون بالمقلوب الأهداف العليا لتكنولوجيا الاتصال على أنها وسائل للتسلية الرخيصة، والتنفيس عن العُقَد التي تطاول عليها الزمن دون حلٍّ أو شفاء.

ما يدفعنا لنؤكد للمرة الألف أن عدم تأهيل الأفراد خلقياً ليصلوا إلى مستوى أخلاقي متقدم سيعرِّض البشرية لشقاء حقيقي طالما أنها وضعت تكوين الفرد المسؤول في آخر أولوياتها، إن لم تكن قد أخرجته تماماً من أي مشروع من مشاريعها الكبرى!!

obeikandl.com

الإجابة الخطأ

في عام ١٩١٢ كان الضابط الفرنسي البارز (أرنست بيكاري) يجوب الصحراء الموريتانية برفقة دليل مسلم من أبناء الصحراء، التي تحولت في تلك الفترة إلى أرض منهوبة على يد الجيش الفرنسي المحتل، وكان مصراً على تلقين أبناء تلك الأرض دروساً متتالية حول المساحة الشاسعة التي تفصل ما بين المدنية الغربية والعالم الإسلامي، كلما سنحت له فرصة الاحتكاك بهم.

وبينما هو في الطريق بصحبة دليله الموريتاني، وجَّه للأخير كلمة عكست نفسيته الموتورة حين قال له:" هل تبين لكم أننا نحن الأقوى والأكثر جدارة بالسيطرة على الأرض؟ وهل أدركتم الآن حجم القوة التي نملك والتي لم تستطيعوا مواجهتها حتى الآن!!

كان رد الدليل المسلم غريباً وباهتا حيث قال: «أنتم لكم الأرض، ونحن لنا السماء»!!

ولعل هذه الإجابة غير الشافية فتحت للضابط المستعمر فرصة جديدة للنيل من المسلمين، كما أنها عكست حالة البعد عن فهم روح الإسلام التي عانى منها سواد الأمة، ممن قُدِّر لهم الوقوع تحت حكم الاستعمار الغربي الذي استثمر ضعف المسلمين وجير جهلهم لصالح أهدافه الخاصة.

إن تَرْك الأرض للغرب المتمدن وطرق باب السماء والسياحة الروحية في الملكوت الأعلى هو مطلب الإسلام من أتباعه - حسب الفهم الذي استقر في ذهن الدليل الموريتاني وقِطَاع عريض من الأمة- وهذا الفهم يختزل الإسلام في طقوس تعبدية لا تستوعب حركته في الليل والنهار.

وبهذه النظرية العارية عن الصحة يصبح الإسلام ديناً كهنوتياً لا شأن له بالفوضى العارمة في الأرض، وكل مطلبه من أتباعه بعض من الركيعات يؤدونها في اليوم والليلة تخلصهم من الشعور بالظلم والقهر، وتدخلهم في ملكوت الله حيث الرضوان والنعيم المقيم!!

إن من الإسراف على النفس أن تكون هذه النظرة الضيِّقة في فهم الدين قائمة حتى اللحظة، دون أن يطرأ عليها التصحيح الذي يتناسب وحقيقة الإسلام، رغم الكتابات الجادة والموضوعية التي تبنّت مطلب إعادة الوعي إلى العقل المسلم، وأخذت على عاتقها إعادة تشكيله من جديد[1].

الأمر الذي يبعث على الغضب والاستياء، ويؤكد أن ترميم ذلك العقل، بل وإعادة هندسته من جديد أحد أخطر القضايا

(١) من أجل تكوين رؤية معمقة لدور الثقافة الإسلامية في حماية العقل المسلم ننصح بتتبع قراءات المفكر مالك بن نبي، حيث تعنى كلها بتكوين رؤية معمقة للواقع الإسلامي في القرون المتأخرة، كما تعنى ببناء الذات المدركة لقواعد التغيير الفعال، وللحصول على نماذج من آرائه المركزة اقرأ مالك بن نبي وشروط النهضة.

http://akhbar.khayma.com

الفكرية التي نعاني منها اليوم، والتي أدى الإهمال في معالجتها إلى تفشّي روح الكسل، والنفور من العمل الجاد إضافة لضعف الدافعية نحو إنجاز الأعمال على الصورة اللائقة، والتضحية بالمواقف التي تؤكّد قدرة أفراد هذه الأمة على إنجاز أدوارهم الحضارية التي طالها الإهمال والتعطيل!!

لو كان هناك إحساس صادق بأهمية التقاط المبادرة من جديد لكنا قد وقفنا على سلوكيات ناضجة تتَّسم بالاعتدال، وتنظم حركة المجتمع في اتجاه استباق الزمن، وصناعة النجاح وفق مطالبه العليا وشروطه الثابتة.

لقد جاءت خسائرنا من الفهم المبستر للإسلام هائلة، وجرَّ الجهل علينا ويلات وشروراً بتنا نكتوي اليوم بنيرانها، ونلمسها في ذلك التهافت على الهروب من الأبواب الخلفية، وغلبة الـ «أنا» السفلي، وانحطاط الهمم، وعدم احترام الزمن، وكل تلك الممارسات كانت ومازالت أشواكاً على الطريق، تقطع الرحلة، وتمنع الوصول إلى بر الأمان[1]!!

(١) إشكاليات العمل الإسلامي بين الثوابت و المعطيات، محيي الدين عبد الحليم كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: قطر.

بعد ابن خلدون

" كان المجتمع الإسلامي في عصر الفارابي يخلق أفكاراً ،وكان على عهد ابن رشد يبلغها إلى أوروبا.

أما في المراحل الزمنية التالية فلم يعد قادراً على الخَلق ولا على التبليغ[١]".

كثيراً ما تَتَردَّد هذه المقولة على ألسنة المثقفين الذين يؤلمهم حالة التصحر في الأفكار، والتقاعس عن توظيف المعرفة، لردم الهوة التي تفصل بيننا وبين الدول المتقدمة.

وبعيداً عن المزايدات والأخذ والرد في موضوع لا يحتمل القفز فوق الأولويات، علينا أن نعترف بأن الفراغ الفكري الخطير الذي تسبب في افتقادنا إلى القيم الدافعة للفعل والحركة هو ما يجب أن توجه إليه الأنظار، وتُعنى به مختلف القنوات المجتمعية للوصول إلى درجة من الانتشار الفعّال للقيم الباعثة على الفعل والحركة والإنجاز.

---

(١) ابن خلدون: محاولة في المنهجية الإسلامية، د. عماد الدين خليل.
من أجل التوسع في فهم أفكار ابن خلدون اقرأ للدكتور عماد الدين خليل: ابن خلدون إسلامياً ص١٣٥ - ١٣٦ (المكتب الإسلامي بيروت - ١٩٨٣م).
وكتابه الآخر: الرؤية التربوية في مقدمة ابن خلدون، كتاب (من أعلام التربية العربية الإسلامية) المجلد الرابع ص١٢٨ (مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض - ١٩٨٩).

openkanal.com

المفارقة المذهلة في مسألة التصحر في الأفكار تتجلى في طريقة عمل المثقفين والمشتغلين بقضايا الفكر حيث ركَّزت فئة واسعة العدد منهم جهودها في التنابز بالألقاب والاتهامات الصريحة التي منحتها بكرم لافت لكل من يعارض آراءها، ويختلف معها في المنطلقات والأهداف.

هذه الرغبة العارمة في تجريد الآخر الداخلي من أية مزايا، ونعته بأقسى النعوت أفرزت حالة من اللامبالاة لدى العامة الذين وجدوا في أحاديث تلك الفئة المسكونة برغبة عاتية في صناعة مناخ سلبي علة كافية لنبذ أي فكرة لفهم ما يجري بين الكبار الذين أعيتهم الحيلة في خدمة أمتهم، وإنجاز أهدافها الكبرى!!

الانزلاق نحو الصخب والجلبة التي تحدثها السجالات الكلامية غير المتصلة بمادة حوارية تستحق الاهتمام، وسَّع من دائرة الأحاديث غير المفيدة وجمع لها جمهوراً أعاد إنتاج الطريقة ذاتها، وكرّس الجدال كلغة مفضلة في التعاطي مع الاختلاف في وجهات النظر، دون أن تكون الغاية هي الوصول إلى حلول عملية وإنما للانتصار للرأي على حساب الرأي المخالف.

في تقديري الشخصي لو أصغى كل متحمس لتجريد مخالفه من مزاياه وصفاته الإيجابية لصوت الضمير لنتج عن ذلك محصلة معرفية يسهل على الناس فهمها، ولأمكن استعادة اللياقة النفسية التي فقدها المفكرون الديناميتيون الذين أدمنوا إشعال

الحرائق الكلامية، وأصبحت هوايتهم المفضلة البحث عن العيوب والمثالب لمن وضعوهم في مرمى سهامهم.

والسؤال الذي يفرض نفسه:كيف تستفيد أمة من تجاربها الفاشلة وثمة من يصر على تسمية الأشياء بغير أسمائها، فيحسن القبيح، وينكر المعروف، ويحترف الاصطياد في المياه العكرة ثم يُقدَّم بعد ذلك للجمهور على أنه الفارس الذي لا يشقُّ له غبار، والمؤتمن الغيور على مصلحة مجتمعه وأمته؟

إن اختراق العقول بالترويج للثقافة المزيفة هو جريمة تنفذ بحق أفراد الأمة الذين لا يتوفر لهم الرصيد الكافي من الوعي للحكم والاختيار.

وبقدْر ما يهبط مستوى الأنشطة الثقافية الموجهة للجمهور بقدر ما يتراجع دور الفرد المشارك في تلك الأنشطة التي لا تسمن ولا تغني.

استعادة فاعلية الفرد لها جملة من المقومات والأركان من أهمها توفّر قاعدة بشرية مثقفة تتوفر فيها شروط الأمانة الأخلاقية والكفاءة النفسية، إلى جانب التميّز العلمي والمنهجية في تناول الأفكار ونقدها.

وكل التجارب التي أخلت بشرط من الشروط السابقة قدّمت لنا رموزاً ضعيفة لم تستطع أن تترك الأثر الإيجابي المطلوب،

وأعاقت مشاريع التنمية البشرية التي تستهدف وعي الإنسان، وتخاطب قناعاته الشخصية.

إن حاجتنا ماسّة لتقويم علاقتنا بالثقافة والمثقفين وفق ميزان دقيق لا يسمح للممارسات العشوائية بأن تظهر على السطح، ويؤصل في الوقت نفسه لجملة من المعايير عالية الجودة التي توفر للفرد رؤية عميقة لموقعه في الحياة.

obeikandl.com

أسئلة ليس لها معنى

ماذا لو سألك أحدهم هذه الأسئلة، وكيف ستكون ردة فعل السائل حين تكون إجابتك بالنفي؟

هل تقوم بدورك الرقابي - كأبٍ - على أحسن وجه فتواظب على قراءة المذكِرات الخاصة ببناتك خشية احتوائها على ما لم يكن بالحسبان؟

هل تستخدم الحاسوب وتتعامل مع الإنترنت،وهل تسمح لأولادك باستخدام الشبكة الإلكترونية؟

ما نوع وسائل الضبط والتجسس التي تتبعها للتأكد أنهم لم يسيئوا استخدام هذه الوسيلة الاتصالية الخطيرة؟

هل يملك أحد أبنائك هاتفاً متحركاً؟ وهل تتابع قراءة بريده الوارد ومكالماته الصادرة؟

ما هي نوعية الكتب التي يقرؤها الأولاد؟ وهل قمت أنت بشرائها أم أعطيتهم حرية انتقاء ما يقرؤون؟

هذه الأسئلة وغيرها باتت فاكهة المجالس، وملح الأحاديث وفرضت نفسها على جيل الآباء الأصغر سناً أكثر من أولئك الآباء الذين جاوزوا العقد الخامس من أعمارهم.

obeikandl.com

والّلافت أن من يطرح مثل هذه الأسئلة لا يفعل ذلك لأنه ينتظر إجابات مختلفة بحسب عدد الحضور المشاركين في الحوار، إنما هو يطلقها ليحصي عدد الذين تأتي إجاباتهم بنعم، فيطمئن إلى أن المخاوف التي تعصف به هي مخاوف شائعة، وأن أبناءه ليسوا وحدهم الذين يتوقع منهم الخطأ فالدائرة في اتساع، وأعداد المنتمين إليها في ازدياد!!

وقبل الخوض في هذه المتاهة التي تصنعها الرؤية القاصرة علينا أولا أن نبحث فيما هو أهم من الخصام مع التكنولوجيا ومقاطعتها بإرادة أبوية صارمة.

والأهم في هذه المسألة هو الإجابة عن سؤال يسقط عمداً أو سهواً من دائرة البحث وهو: هل الثقة بالأبناء أصل أم أنها شكل فرعي لا قيمة له ولا أساس؟

استقراء واقع الآباء والأمهات المتوجّسين من التكنولوجيا يؤكد أن منح الثقة بالأبناء فكرة غير واردة في أذهانهم، بل يعدّونها تسيّباً وانفلاتاً وتهاوناً في أداء دورهم على الصورة المطلوبة، فالشك هو الأساس، والحذر هو المبدأ، والحيطة هي الوسيلة الدفاعية الأولى لمنع أي انتهاك للقواعد الخلقية.

لقد غاب عن ذهن أولئك الآباء أن الحذر الحقيقي هو في التربية الناقدة، وفي تكوين الحس المسؤول، وتعويد الطفل منذ

مرحلة مبكرة على السلوك الجيد عبر التزام الأبوين بذات السلوك، وحرصهما على تمثّل القيم التي يناديان بها، حيث التأثير يكون أكبر، والانسجام مع رؤية الأبوين تصبح مسألة سهلة وممكنة.

إن تكوين الحس الناقد والتربية المعيارية المؤسَّسة على الحوار، وتبادل الأفكار هي المسؤولة عن صناعة مناخ إيجابي يدفع باتجاه تكوين جسور الثقة، ويمنح الأبناء الشعور بتقدير الذات الذي يعدّ الحصول عليه مكسباً نوعياً، يحقق للطفل القدْر المطلوب من التوازن النفسي ويمنحه طاقة خلّاقة يستطيع تصريفها بالشكل الصحيح.

إن تقدير الذات هو حجر الزاوية في بناء شخصية الطفل ولا أقول المراهق حيث يفترض أن تمارس سياسات تربوية واعية تمنح الطفل الشعور بأنه محل ثقة أبويه وأهل للتقدير والاحترام.

غير أن ما نقوله يرتطم على صخور الواقع، ويرتدّ إلى قائله، حين يسحب البساط من تحت قدم الصغير، ويطلب منه أمام كل عبارة يقولها أن يقسم بأنه غير كاذب.

أي عُقَم في التفكير وسطحية في التعامل تلك التي تضع الأبناء موضع الاتهام منذ نعومة أظفارهم.

فالمطالبة بالقَسَم دليل على اهتزاز الثقة وذبولها في قلب الأبوين، وتلك مقدمة تشير إلى ممارسات تخرج من ذات الفكر المحدود.

إذ مع مرور الوقت، وتسرّب الزمن تكرّس تلك الممارسات السقيمة، ويكرّس الإحساس بانعدام الأمان في محيط الأسرة.

ولو تواضع الآباء المولعون بتوزيع التهم على أبنائهم لعلموا أن الثقة وحدها هي طوق النجاة من أي انتهاكات يَحْذرها المربون.

هذه الثقة لا تمنح دون مقدمات، والمقدمات لا تؤجل حتى سن المراهقة، إنما هناك مراحل الطفولة الأولى والوسطى والمتأخرة، وفيها متسع لغرس القيم، وتكوين العادات الجيدة.

ثمة خيارات واسعة، ومقدمات كبرى خليقة بأن يتعرف عليها هؤلاء الآباء الغارقون في مخاوفهم، والتي لو وقفوا عليها فسوف تهدأ خواطرهم، وينعموا بحياة أكثر اطمئناناً ودفئاً.

obeikandl.com

عن سبق إصرار

"إنهم أناس متكسّلون، تالفون، لا يخشون إلا شيئاً واحداً: أن يصيروا واعين"

نيتشة. جينا لوجيا الأخلاق

بهذا الوصف الشديد اللهجة اختار نيتشة أن يتهكم على المنحلّين من أفراد مجتمعه الذين رأى أن مبالغتهم في السلوك المائع دليل على تعمد الهروب من الإصغاء لصوت الوعي، ذلك الصوت الذي لو وصل إليهم فسيحرمهم من الحياة العابثة التي يتقلبون فيها.

ومن خلال استقراء سلوك هذه الفئة يظهر أن الخصومة بين مخترقي الخطوط الحمراء، وبين الوعي خصومة أزلية، والطلاق بينهما -في الغالب- طلاق بائن، حيث يندر أن ترى شخصاً متمرغاً في السلوك المنحرف يدرك ما يدور حوله، أو يعي حقيقة ما يصنع بنفسه.

مثل هذا الاستغراق في الجهل من قبل المنحرفين هو موقف فكري متعمّد يصر فيه أتباعه على أن لا يعلموا حقيقة ما يحيط بهم، مكتفين بفتات الأخبار التي تأتيهم- رغماً عنهم- من هنا وهناك.

فإذا ما وجدوا أنفسهم أنهم قد يساقون سوقاً لاكتشاف حقائق الحياة من حولهم قاوموا بكل ما يملكون أي محاولة للإيقاظ مهما كانت محدودة وطارئة.

وما ينطبق على هذه الفئة التي حكمت على نفسها بالجهل المؤبّد، وآثرت أن تعيش في غياهبه، ينطبق على فئة أخرى التزمت بالأطر العامة لأخلاقيات المجتمع لكنها رضيت بالحظ الأدنى من الوعي والبصيرة.

عدد أفراد هذه الفئة هم بطبيعة الحال أكثر من أفراد الفئة التي استسلمت لأهوائها، واصمّت أذنيها عن سماع أي صوت للمعارضة يدين التمرغ في الوحل، ويحرض على تعديل المسار، لكن هذه الزيادة في العدد لا تبشّر بمستقبل أكثر استجابة لطموح الأمة، طالما أن الانكفاء على الذات، والرضا بالحدّ الأدنى من الوعي هو الاختيار الذي تتبناه هذه الفئة المتقاعسة عن أداء أدوارها التنموية في خدمة قضايا الأمة.

تطبيق سياسة الاكتفاء الذاتي بفتات من المعلومات الناقصة التي لا تقوى على دعم العقل، وتزويده بما يحتاجه من المعرفة والإحاطة بقضايا الحياة من حوله؛ هو قرار مسبق بالمراوحة في المكان، والنظر بعين كليلة إلى الأحداث دون إبداء أدنى اهتمام بها.

اللا فاعلية في التعاطي مع القضايا العامة سببها الجمود والتحجر، والأهداف الضيقة التي لا تتجاوز توفير الحاجيات المادية مع الإعراض التام عن تلبية حاجات العقل والنفس أو الإصغاء لصوت الضمير!!

الفجوة الهائلة ما بين حياتين إحداهما مادية لا تتجاوز الحظوظ العاجلة، وأخرى عقلية تدعم الإنسان في تطلعاته نحو تفعيل رحلته في هذه الأرض هي فجوة مريعة، وانخفاض مستوى التوقعات لأفراد الفئة المحرومة من الوعي، هو مقتل أي مشروع تنموي أو نهضوي يعد الإنسان فيه حجر زاوية التغيير، ومرتكز مشاريع استعادة الدور الحضاري المفقود.

openkandil.com

المحافظة على الخصوصية

الشخصية المعولَمة التي يحذر منها المفكرون والنخب المثقفة والغيورون على الإرث المجتمعي لدى كل شعب وأمة هل ستساق سوقاً لتتعولم، أم أنها ستختار بمحض إرادتها أن تتمرد على الخصوصية والانتماء، وأن تقتلع جذورها بيدها وليس بيد عمرو الغربي والذي قد يسمى "جون" أو "روبن" أو "مارك" فتمارس طفولة متأخرة، وتسخر من الماضي بكل ملامحه وصوره وظلاله؟!!

الشخصية المعولَمة هل هي قَدَر أم اختيار، وهل هي فعل خارجي محض على نحو تكون فيه الشخصية المعولَمة مسلوبة الإرادة، محرومة التفكير، منزوعة الطاقة لا حول لها ولا قوة؟ أم أنها نتاج خيار شخصي ورغبة داخلية وفعل نابع من أعماق الإنسان اللا منتمي المنسلخ من جلده إلى غير رجعة؟!!

من هو الإنسان المعولَم الذي تحذِّر منه النخب المفكرة في العالم، وتراه صورة مشوهة لواقع رديء، تقمص فيه أفراده القيم المادية وانزلقوا إلى قيم الغرب بكل ما تحمله من معان جافة تدمر في الإنسان روحه، وتحوله لآلة مجردة لا روح فيها أو ضمير؟

أي رؤى تلك التي تحيط بعقل الإنسان المعولَم، وتقوده لافتعال أزمات، والتصادم مع مواطنيه سواء تعمد الاصطدام أم أن سلوكه

وحريته الجديدة هي التي تثير من حوله الزوابع وتشعر البعض بالامتعاض من انهزامه أمام القيم المستوردة والأفكار ذات المنشأ الخارجي والمحتوى المخالف للمبادئ الأصيلة؟

لقد مرت فترة من الزمن والتحذيرات المتوالية من السقوط في فخ العولمة تنتشر في كافة أرجاء الأرض، وكأن كل فرد في العالم قد شلت فاعليته، وصودرت حريته إلى الحدود القصوى، دون أن تتوفر له مساحة من الاختيار، ولو بصورة جزئية وبهامش محدود.

إنه لمن المسوغ أن ينهض من هم خارج المنظومة الإسلامية للتوجع والنحيب على ما سيؤول إليه امر تراثهم القطري أما أن يكون لنا نحن أبناء هذه الأمة ذات الموقف المكلوم وننبري على التباكي على أرادتنا المسلوبة وعقلنا المنتهب فهذا عمل طفولي من المستوى الأول.

حيث إن المخزون الثقافي الذي نملك يكفي - فيما لو وظفناه- ليحمي الفرد من تبني قيم استهلاكية ليس لها من رصيد في التجربة المجتمعية وكل إفرازاتها صنفها المجتمع على أنها رديئة، ولا ترقى لاعتمادها كمنهج في التفكير أو كنمط للسلوك.

إن الاستمرار في الضرب على معزوفة القيم المستوردة المدعومة بإرادة فولاذية من القرار السياسي المرتهن بيد رجال المال والأعمال ينبغي تأطيره بإطار يتناسب والعمق الثقافي الذي يتمتع به سواد هذه الأمة الساكنة.

الخيارات كلها مفتوحة أمام من يتراشقون بالحمم الكلامية متهمين الأنظمة السياسية وحدها في التسبب بالتدهور الذي آلت إليه الأمة، والضعف الذي يشمل كافة أعضائها ويأسر فاعليتها.

وقد كان من اللياقة الأخلاقية ومن الموضوعية في التناول أن توسّع دائرة الفهم، ويتم تسليط الضوء الكافي على جذور الأزمات الراهنة الحالية لنكتشف حجم الخلل المركّب الذي تسببت به الهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية، قبل أن نحصر المشكلة في جهة داخلية واحدة أو في فعل خارجي متآمر.

على المستوى الخارجي - حيث أذعنا مبكرين لمشاريع تغيير البنية الثقافية واقتلاع هوية هذه الأمة - يبدو تبرير الرضوخ لمشيئة الآخر بأنه فعل حتمي نتيجة تفوق الحضارة الغربية منطق ينم عن ضعف قائله وعن هشاشة تفكيره.

فالوقوع في فخ التغريب هو نتيجة التسطيح وغياب الوعي أكثر من أن يكون قدراً جبرياً لا مجال فيه للرفض أو المناورة.

إن تشرّب القيم الوافدة والاستسلام لطوفان العولمة دون تبني موقف وسطي يساعد على تجويد الاختيارات واستثمار الثورة التكنولوجية في خلق فرص لتعزيز الهوية ودعم الذات؛ لا يعدو أن يكون دليلاً على الإفلاس والعجز عن مواجهة الآخر.

ولو كتب عن الشخصية الانسحابية - التي غدت علامة فارقة على انطفاء فاعلية المسلم وقصور أدواته عن استثمار مزايا

عصر الديجيتال - مثلما كتب عن مكر الآخر وخططه الجبارة في اكتساح العالم العربي والإسلامي؛ لربما شكل ذلك إضافة نوعية إلى مخزون الفرد من الوعي، والذي كان وما يزال - في كثير من الحالات - مخزوناً ضعيفاً لا يكاد يسعفه في فهم كيفية توظيف طاقته في الاتجاه الصحيح.

إن اختراق الآخر كافة منظوماتنا الفكرية وتجاوزه للخطوط الحمراء في التعامل مع قضايانا لا يلغي ألبتة قدرتنا على الفعل، لأن الفعل كان وما يزال خيار الفرد الحر والأمة الحرة التي تأنف أن يأسر إرادتها المتربص والطامع.

في ظل الطرق المستمر حول الهجوم الضاري للثقافة الغربية خيل للكثيرين أننا لسنا كائنات حية تعي وتعقل ولها نصيب من القدرة على الرفض والاستعلاء، ما ساعد على سرعة الاستسلام وسهولة تقمص دور الضحية بعد أن عجزنا عن قراءة الواقع من حولنا، بل وعن التعرف على أنفسنا لاكتشاف الحقيقة القريبة البعيدة التي أصبحت كقبض الريح رغم أنها أقرب إلينا من أي شيء آخر!!

نحن وعلم النفس

هل هي سخرية أم هو وصف دقيق لواقع علم النفس الذي يعرفه البعض: بأنه العلم الذي يذكر لك أشياء تعرفها فعلاً بكلمات لا تستطيع فهمها؟

وإذا كان هذا الوصف دقيقاً أو يحتمل درجة من الصحة فلماذا يظل بهذه الهيئة دون أن يبادر أساتذته الكبار بتيسيره وتقريبه لأذهان غير المتخصصين؟

أن يعسر فهم العلوم التطبيقية على غير المتخصصين فهذا لا ضير فيه، أمّا أن ينطبق وصف التعقيد على علم النفس فهذا تقصير فادح من قبل أساتذة هذا العلم نظراً لحاجات الناس المتجددة للوعي بالموضوعات التي يتناولها.

إطلاق صفة التقصير على الأساتذة والباحثين النفسيّين العرب قد يحمل بعض الظلم، وينأى عن الإنصاف والعدل، إذ ثمة محاولات جادّة لمدِّ جسور طبيعية بين القارئ غير المتخصص وبين علم النفس الذي يحتاج أغلب الناس للتعرّف عليه عن كثب، كي يقفوا على أحدث النتائج التي اهتمت بتحليل السلوك البشري ورصدت العوامل المؤثرة في الشخصية من حيث الثراء والفقر في عناصر التميز والقدرة على تحقيق الذات.

من بين التجارب المتميزة التي يمكن رصدها مجلة الثقافة النفسية، ويتولى إدارتها الدكتور محمد أحمد النابلسي أستاذ الطب النفسي وأمين عام الاتحاد العربي للعلوم النفسية، وقد صدرت عام ١٩٩٠م، لتكون إحدى همزات الوصل التي تربط ما بين القارئ غير المتخصص في هذا الحقل من العلوم الإنسانية الذي تزاحمت به المصطلحات، واكتظت به المترادفات الغربية إلى الحد الذي انصرفت فيه أذهان الناس عن مجرد التفكير به أو بجدواه في حياتهم العملية.

من المجلات الأخرى التي اجتهدت للعمل على ذات الهدف؛ الشبكة العربية للعلوم النفسية، بالإضافة للمجلة المصرية للدراسات النفسية، ومجلة الصحة النفسية اليمنية، ومجلة العلوم التربوية والنفسية من جامعة البحرين، إضافة للحوليات التونسية للطب النفسي وبعض المجلات الأخرى المتخصصة في هذا المجال.

انتشار هذه المجلات هو بحدِّ ذاته مطلباً لا يقل حيوية عن مطلب الوجود والتأسيس، فلا يكفي وجود مجموعة من المجلّات النفسية تتوزع في أجزاء مختلفة من العالم العربي لنقول إن لدينا شبكة معلوماتية تعنى بتبسيط العلوم النفسية للقرّاء، وتهتم برفع مستوى لياقتهم المعنوية تبعاً لمقاصد هذا العلم وغاياته النهائية.

الشعور بالغربة من اقتحام هذا الميدان، ولو من باب الفضول يكاد يكون شعوراً طاغياً على أغلب الناس، فما لهم ولعلم النفس؟

ولماذا يقرؤون في هذه الموضوعات التي يشوبها الغموض وتحيط بها الألغاز وتجلب وجع الرأس وتثير الهواجس دونما سبب؟!!

إغلاق هذه النافذة أفضل- حسب النظرة الشائعة- واتخاذ مواقف سلبية غير مبالية بثرثرة الأطباء النفسانيين هي العافية والسلامة التامة.

أوجاع معنوية ومفاهيم مشوشة تحفُّ بالموضوعات النفسية، وتبعد الفرد عن شواطئ هذا العلم وبحوره وكأنها بحور من ظلام، ما إن يطأها بقدمه حتى تجذبه نحوها وتغرقه في أمواجها العاتية.

الأفلام والمسلسلات العربية كان لها دور بارز في زراعة كم من المفاهيم الخاطئة حول هذه المسألة من خلال حزمة من الأفكار التي روجت لها، كالنَّيل من شخصية الطبيب النفسي الذي يصوَّر على أنه أهبل أو موسوس أو به مس من جنون، يولع بالجلسات الكهربائية، ويعنيه أن يغرق مرضاه بكم من حبوب الهلوسة وفقدان الذاكرة المؤقت.

هذه الصورة المزرية لأطباء النفس أوقعت المشاهد في حيرة بالغة، وصرفته كلية لا عن مراجعة الطبيب النفسي إن احتاج إليه فحسب، وإنما جعلته يشك في هذا العلم جملة وتفصيلاً، ما يعكس الاستخفاف بعقل المتلقي الذي لا يملك أية رؤية لهذا الموضوع.

فالتنفير من قراءة الموضوعات النفسية هو حرمان للفرد من تكوين ثقافة ناضجة حول ذاته، وتصحيح علاقته بها قبل أي شيء

آخر، ولدينا ولدى العالم أيضاً من حولنا مشاكل جسيمة تعاني منها الشعوب نتيجة عدم القدرة على مصالحة الذات والانسجام معها.

وبحسب تقديرات منظمة الصحة العالمية فإن ١ ٪ من سكان العالم هم بحاجة لمراجعة أطباء نفسيين، والعدد في الدول النامية مرشح للزيادة على هذه النسبة.

باستقراء الواقع العربي الذي يعد مناخاً خصباً لإنتاج أنواع الظروف المسببة للإحباط، نكتشف خطأ هجر الموضوعات النفسية التي تعمل على تكوين مناعة ذاتية ضد الشعور بالهزيمة النفسية، أو على أقل تقدير تحول دون أن يفقد المرء ثقته بنفسه نتيجة الأوضاع المقلوبة التي يعاني منها الجميع.

فكم هي درجة التحمل التي يمتلكها أفراد المجتمع وهم يعانون من أوضاع تنحو نحو التعقيد وتتجه لتكريس كل ما هو سلبي ولا أخلاقي من الممارسات والأعمال؟

في أوضاع كهذه تعد الحصانة النفسية ضد الصدمات خياراً قائماً يستحق الإنجاز، وفيما لو أهمل الإنسان التعرف على ذاته وكيفية مدّ الجسور معها ومع الدوائر الخاصة المحيطة به، واستسلم للتحديات دون مقاومة فسوف تجرفه الأعاصير دونما رحمة.

شيء من التوازن في المواد المقروءة، وبعض الانحياز لكل ما فيه مصلحة الإنسان هو العمل الأَلْيَق بالعقلاء والأجدر بهم.

الحاجة للاستشارة النفسية

على التقليديين أن يراجعوا أنفسهم وهم يضعون سدوداً مفتعلة، وحواجز مصطنعة، تحول دون وصول الخدمة العلاجية النفسية للطرف الذي يعاني من أزمات حادة.

مظاهر وجود خلل في الشخصية كثيرة، بعضها شديد الظهور، والآخر لا يكاد يكشفه إلا من لديه الخبرة في التعامل مع النفسيات، مما يجعل من درجة القرابة أحد أهم القنوات المرشحة لدعم الفرد في أزمته، وتوجيهه في الاتجاه الصحيح.

ثمة محاولات خارج الوسط الأسري لاحتواء الحالات الصعبة المراس، أو أولئك الذين يعانون من ضعف الدافعية للعمل، تقوم بها هيئات ومؤسسات مهنية بدأ اهتمامها يتزايد في السنوات الأخيرة في تنفيذ برامج وأنشطة، تهدف لرفع مستوى اللياقة النفسية للعاملين، وتزويدهم بخبرات عملية تساعدهم على تحرير الطاقة الذاتية، والانطلاق نحو الأهداف بصورة أكثر كفاءة وتأثيراً.

توسيع دائرة التأثير هو الهدف المحوري الذي تُصَبُّ فيه كافة البرامج التي تستهدف الذات، وتعنى بتطويرها.

وعن طريق الاهتمام المكثّف بالأجواء، الصحوة التي تشيعها تلك البرامج الهامة يمكن بسهولة قياس مدى التقدم الذاتي الذي

يحوزه الفرد، وهو يوالي الاتصال بصوته الداخلي، ويعيد من جديد اكتشاف قواه الكامنة محاولاً إقامة صلح دائم مع القيم العليا الدافعة لتحسين السلوك، وتفعيل الطاقة.

وفي حين يعجز عدد هائل من الناس عن مصالحة أنفسهم، مؤثِرين الانغماس في دوامة العمل مما يعرضهم للشعور بفقدان التوازن، وعدم القدرة على السيطرة على المسؤوليات المتداخلة، والباهظة التكلفة، تجد آخرين وقد عرفوا أن سر النجاح يبدأ من مصالحة الذات ومنها ينطلق.

لا تعدو الأنشطة الخارجية أسرية كانت أم مهنية، أن تكون المرآة التي تعكس صدى الداخل، وتعبر - بوضوح- عن البنية النفسية ومنظومة القيم التي ينتمي إليها هذا الفرد أو ذاك.

ليس غلواً في القول، ولا لغواً في الحديث أن نطالب ببحث هذا الموضوع من قبل الجهات المعنية بمخاطبة الفرد إعلامية كانت أو ثقافية، أو أقساماً داخلية في المؤسسات الحكومية والخاصة، فالتراجع الحاد للمخرجات الوظيفية، وحالة اللا مبالاة التي يفتعلها عدد غفير من الموظفين، إلى جانب القصور في الشبكة الاجتماعية التي تعاني من فتور ظاهر في التعاطي مع الحقوق والواجبات، يجب أن تكون محفزات لتقويم البرامج المقدمة لأكثر من قطاع في المجتمع يعاني من نقص حاد في الحصول على مساعدة خارجية.

إن الانعكاسات النفسية المترتبة على مجتمع الاستهلاك تؤكد بقوة على أن بناء الإنسان من الداخل هو مطلب تنموي أصيل، وليس أمراً ثانوياً يمكن النظر فيه أو إسقاطه من أجندة الجهات التي لها قاعدة جماهيرية تستهدفها بالخطاب، أو الأخرى التي لديها كوادر عاملة تريد تفعيلها والحصول على أفضل ما لديها من عطاء.

لن يكون العطاء مجزياً، ولا الهمة متّقدة طالما أن ثمة عوائق في النفس البشرية تكبل إرادتها، وتمنعها من مزاولة التفكير فيما بين يديها من مهام.

يعد التفكير الإيجابي الخميرة التي تصنع النجاح، وتحفز الفرد على تخطي العقبات وإيجاد حلول للمشاكل الروتينية التي تعترض الطريق، كما أن الشخص المتمتع بأفق متسع يتمرن بصورة متواصلة على قبول التحديات، والسير حتى النهاية لبلوغ غايته، ما يؤكد أن إسقاط مطلب التحصين النفسي ضد الأزمات، وحماية الذات من التآكل والنحت هي مطالب تنموية بالدرجة الأولى، وهي خط أمان يحمي أي مؤسسة تبحث عن مكانة مرموقة في مجتمعها من التراجع، أو الانسحاب من الخطوط الأمامية.